

القصص

قصة جديدة بقلم الدكتور سهيل درسي

[مهداة الى اميل شويري : بعد خمسة اعوام من الفاجعة]

العرب جميعاً، مختلطة متضاربة.
لا يميز منها حرفاً، ولا يدرك
الا انها ذات لهجة مزقة كأنها
تشمّ المستمعين، ونسب الناس.
او كأنها اصوات الزعماء العرب
تعلن النصر العظيم .. او
كأنها اصوات الاعداء تعلن
النصر الاعظم، نصرهم هم
وهزيمتنا نحن .. يا الهي . إن

رأسي يكاد ينفجر . كلمة واحدة . نغمة امل . همسة رجاء .
أترام غير كذابين ، هؤلاء المرسلين الكذابين ؟

وقتل مفتاح الراديو بشبه لا وعي . وسرعان ما تلاشى في
سمعهم ذلك العالم الصاخب بالضجيج ، فخرست الاصوات ،
وساد غرفته الصغيرة صمت حزين ، كهذا الذي يشعر به الحي
حين يودّع عروسين حبيبتين ذهاباً الى لقاء السعادة ، او كهذا
الذي تشعر به المقبرة بعد ان تضم اليها جسد الميت ، ويخلفها
اهل الميت عائدين الى دورهم صامتين .

وتلبّث لحظات حتى تمحي من عينيه آخر ظلال الموكب ،
وحتى تمحي من اذنيه آخر اثار الضجيج ، ثم التفت بالمصادفة
الى طاولته ، فافى الكتاب فاغراً فاه يدعوه . واقبل على
الكتاب في إحساس من عزاء . ولكن سرعان ما اهتزت تحت
عينيه الكلمات ، فاذا الصفحة كلها سوداء ، ثم اذا هي كلها
بيضاء . عبثاً تحاول . يجب ان تفقد وعيك قبل ان تستطيع
التفكير بشي . آخر .

واطفأ النور ، وخرج من غرفته ، وهبط السلم . وحين
بلغ منتصفه فقط تساءل الى اين هو ذاهب . وبالرغم من انه لم
يسمع الجواب استمر في الهبوط . ثم تكوّن هذا الجواب
إحساساً غامضاً . ينبغي ان اخرج الى لا مكان . يجب ان
اخرج من جلدي ، من نفسي ، من وعي .

وسار الى لا مكان ، وألمّ بناس كثيرين ، وألمّ به ناس
كثيرون ، ولكنه لم ير منهم احداً . وهو لم يدرك انه لم ير
احداً إلا حين رأى بائعة الصحف ، على كتف مقهى « ديبون » .
رأى تلك المرأة القصيرة الدميمة وهي تصيح : « فرانس
سوار ، لوموند » . وشدّ ما كان صوتها نقاداً الى اعماقه ، حتى
ظنّ انها لم تكن تقصد في صياحها سواه . وانتفض من غيبوبته .

كلهم هنا كذّابون .
المحطات والمذيعون ووكالات
الانباء . الصحف والمحرون
والمراسلون . كلهم كلهم
كذابون . حتى المذيعون
العرب في المحطات الاجنبية .
ولكن ماهي الحقيقة يا الهي .
صحيفة عربية واحدة ، بتاريخ
اليوم ، او بتاريخ امس ، او

بتاريخ اول من امس . رسالة من صديق . كلمة واحدة
تصرخ بأنهم .. هناك .. ماضون في زحفهم ، جادّون في
زحفهم . ان كل هؤلاء الناس هنا كذابون .

وعاد الى الراديو يعالجه من جديد ، فينقل إبرته بدقة وبطء
تارة ، وبسرعة وعصيبة تارة اخرى ، متمسكاً صوت مذيع في
اذاعة عربية وطنية ، مستجدياً صوتاً يقول ان الجنود العرب
قطعوا كيلومتراً آخر نحو تل ابيب ، انهم لم يقفوا ، لم يترددوا ،
لم يتراجعوا .. يا الهي . اين صوت القاهرة ، اين صوت القدس ،
اين صوت دمشق ، بل حتى صوت بيروت ، اين هو ؟ لماذا هي
اليوم غائبة ، هذه الاصوات كلها ؟ رداءة الاحوال الجوية ؟ بل
إنها لرداءة هذا الراديو العين . يوماً يحكي وعشرين نجرس . ما
اروع الصوت الذي كان ينطلق منه ، منذ اربعة ايام ، من
القاهرة ، ينشر على الدنيا صفحات مجيدة ، صفحات كثيرة
ملأت صدره بفرحة كبيرة لا تتسع لها الدنيا كلها . الزحف
مستمر بقوة . العاصمة على بعد ثلاثة عشر كيلو متراً . الجيوش
العربية توسك ان تلتقي . الكهاسة يضيق طرفاها . يضيقان ، يضيقان .

ويضيق صدره هو ، حتى ليوشك من فرحه ان ينشق .
فاذا هدأت النشوة ، انطلق بصره الى الافق البعيد ينسج
الآمال ويرسم خطوط المستقبل . وإذن ، فسوف تنتهي المهزلة
عما قريب . سيندأ وعينا بوجودنا ، سنركز قدماً ثابتة في ارض
صلبة . ثم نمشي . وقد نكون في مشينا مبطنين . ولكننا لن
نبقى واقفين هكذا ، كصخرة مينة ، والنهر من حولها متدفق
صاخب . ستجبا الصخرة ، وستتحرك ، وستنقلب الى موجة ،
وستنصهر الموجة في مياه النهر ، لتتدفق مثلها ، حية ، فتية ، رائعة .
وظل الراديو اخرس ، إلا من اصوات صفير واشتات انغام
واصداء كلمات اجنبية . ثم ضجت في سمعه فجأة اصوات المذيعين

صحف المساء . وانقتل مسرعاً يبتعد . صحف المحبرين والمراسلين الكذابين . صحف يملكها اليهود ، ويفذّها اليهود باكاذيبهم . صحف عاهرة . وابتعد وابتعد ، في اتجاه اللكسمبورغ ؛ ولكنه حين ألمّ بمقهى « الكابولاد » انفجر في اذنه صوت ، لا يدري أهو صوت بائعة « ديون » يلاحقه ، ام صوت هذه التي تبسط الصحف امام « الكابولاد » . انفجر في اذنه الصوت متحدياً عنيفاً : « فرانس سوار ، لوموند . »

ابن المفرد بعد ؟ الى اين يمضي ؟ لقد غرق في الاصوات . وعادت الجلبة والضجيج ترافقها هذه المرة صفحات كثيرة من صحف عديدة ، تتطاير حوله ، وتصفق وجهه وعينه وضميره . ثم ضغط على اعصابه ، وانقتل مرة اخرى ، ووعى انه يُلمّ ببائعة الصحف عند كتف « ديون » وابتاع الجريدتين ، ويطويها برفق تحت ذراعه ، وتقوده قدماه من جديد نحو الفندق .

وعند باب الفندق ، التقى بانطوانيت خارجة ، فتذكر فجأة انها كانا قد تواعدا على اللقاء عند الساعة الثامنة . ونظر فاذا هي الثامنة والثلاث :

— معذرة يا عزيزتي ... لقد اضطررت الى التأخر عند صديق .

وقرأ في عينها انها لم تبتلع الكذبة . ولكنه اصطنع اللامبالاة ، واخذ بذراع انطوانيت ، فرقى بها السلم الى غرفته . وكان شعوره المباغت بالسعادة يتفاقم كلما ارتقى درجة . ولم يدرك إلا بعد وقت طويل ان مبعث هذه السعادة إنما هو خروجه من نفسه . لقد انتزعت انطوانيت من دنياه ، وجذبتة الى دنياها ، دنيا شفتها الملتهبتين وجسدها الحار . ما كان لمثل ذلك العذاب ان يزول ، لو لم تقتله لذة جسدية طاغية . لذة يحجب طينيتها في السمع كل صوت داخلي . لذة تستقطب حولها كل إحساس ، وكل فكرة وكل وجود .

وشعر بانه يلحّ على انطوانيت ، كما لم يلحّ من قبل قط ، بان تبيت الليلة عنده ، كأنما كان يخشى ، ان هي غادرتة ، ان يستغرق من جديد في دنياه . ولعله شعر للمرة الاولى ، منذ ان كان يعرف انطوانيت ، ان حبه لها يتعدى الصلة المادية ، ويتسامى بصلة روحية نامية . لقد أحسّ بذلك ساعة ذوّب في عينها نظراته ، واوشك ان يفلت من بين شفتيه تلك العبارة التي كانت تترقبها انطوانيت بانتظار مسعور . لقد كاد يطلب

يدها للزواج ؛ الا انها كانت قد استسلمت بين ذراعيه الى الرقاد .

★

واستمرت هذه الغيبوبة طوال اليوم التالي الذي قضاه بصحبة انطوانيت . فقد انطلق بها في الصباح الباكر الى « فرساي » فزارا قصرها العظيم و « التريانون الكبير » و « التريانون الصغير » ومتاحف الرسم والنحت ، وعاشا ساعات طويلة في تاريخ فرنسا .

ولكنه ادرك عند الأصيل انه لن يستطيع طويلا ان يكذب على نفسه . او لعله قد استنفد السعادة التي بين يديه ، فطلب العودة الى واقعه .

وعاد الى هذا الواقع ، ساعة وصل الى حيه في باريس ، واشترى « فرانس سوار » فقرأ فيها ان الحكومات العربية امتثلت لقرار مجلس الامن ووقعت الهدنة مع اليهود .

قرأ ذلك هادئاً ، مطمئناً ، كأنما هو اجني ، او كأنما شعوره قد تعطل وتبلد . وتابع تفاصيل الاخبار بدافع الاستمرار .

— يظهر انك نسيت يا عزيزي اني هنا .

حقاً نسيت يا عزيزتي . عفوك يا انطوانيت . انت اغلى عندي من كل شيء . ليس غيرك من يستحق الاهتمام . تعالي إلي ايتها الحبيبة ، وهات شفتيك . ان قبلةً منها تعدل كل شيء في الدنيا . تعدل اولئك كلهم . تعدل الزعماء والقادة والجود . تعدل العرب جميعاً . ان في قبلك مذاقاً . اما هم فليس لحياتهم كلها اي مذاق . ليس لحياتنا كلها نحن العرب معنى بعد . تعالي الي . ما انضر هذا الجسد ، وما اشهى هذا الصدر .

وتركته انطوانيت محتضنها وهي تضحك بجذل . ثم تناولت الصحيفة ، ومرت سريعاً بعينها على العنوان الرئيسي :

— لقد وقف القتال إذن في فلسطين؟ ولكن لماذا يا عزيزي؟ اما كان العرب منتصرين؟ لماذا قبلوا بالهدنة؟ ألا تعتقد ...

وازعجه هذا السيل من الاسئلة ، فأشاح بوجهه وهو يقول : — دعك من ذلك يا عزيزتي . انه لا يستحق الاهتمام ...

فألحّت عليه وراحت تسأله :

— بل قل لي . هل انت راضٍ بذلك ؟

فاغتصب ضحكة :

— انا ؟ وأي شأن لي بذلك ؟

فقلت ، وقد أتستع عيناها من العجب :

– كيف ؟ من له اذن شأن بذلك ؟

فانفجر ضاحكاً وهو يقول :

– هتار ! هتار الذي كان ينبغي ان ينتصر !

فانفضت الفتاة ، وتخلصت من ذراعيه ، وحين نظر اليها ، كان الاحمرار يصبغ وجهها .. وان هي الا لحظات حتى انفجرت غاضبة :

– ليس لك الحق بان تتحدث عن هتار .. انك لم تعش هنا في المقاومة لتدرك إجرام النازية .. وانك تهين كل فرنسي حين تشير الى هتار اشارة مدح ، او تمنى ان يكون قد انتصر ... وما كان بحاجة الى من يثير اعصابه . فهو منذ يومين يحاول ان يربط هذه الاعصاب الثائرة ، وهو يشعر بانه من جراء ذلك يجتثق . وقد نهض ، فأمسك بذراع انطوانيت بقوة وهو يقول : – هدئي اعصابك ، وحاولي ان تفهمي مقصدي . ان لك مطلق الحرية في ان تعتنقي الرأي الذي ترين . وان لي مثل ذلك على ما اظن . انك تنظرين الى القضية من زاوية قوميتك ، وانا انظر اليها من زاوية قوميتي . تكرهين هتار لأنه اذنه سام الفرنسيين العذاب والهوان ، واجبه لأنه اضهد اليهود ... وكنت أحبه اكثر لو تمكن من ان يتابع عمله في اجتثاث اصول هذا العنصر الذي يفسد الدنيا كلها !

وقاطعته انطوانيت بلهجة من يرفض الاقتناع :

– انني امنعك مرة اخرى من ان توجه لنا نحن الفرنسيين اية اهانة بمدح هتار او النازية المجرمة . انه سواء لدينا ان ينتصر العرب او اليهود في فلسطين !

ولم يُطق صراخ هذه الفتاة . ما اقبح المرأة إذ تصيح . ونهض على مهل ، فرجاها بان تدعه وتخرج حتى تهدأ اعصابها او تهدأ اعصابه هو ، ولكنها نفرت منه وقذفت وجهه بعبارتها : – سوف اخرج .. ولن اعود اليك على الاطلاق . ولكن هذا لا يمنعني من اقول انك شرقي متوحش !

وصفها صفتين ، ثم حملها بين ذراعيه ودفع بها الى الخارج . وظل صراخها يتعالى خلف الباب الموصد بضع دقائق ، ثم سمع صوت اقدامها تهبط السلم . وجلس على كرسيه ملتاث الفكر .

ليتني كنت متوحشاً . ليتنا جميعاً ، نحن الشرقيين ، متوحشون . إذن لاستطعنا ان ندرأ بوحشيتنا هؤلاء الذين

اقبلوا يغتصبون بلادنا ، واولئك الذين يظاهرونهم على هذا الاعتصاب . ولكن اي هذيان هذا ! اصحيح ان كل ذلك قد وقع ؟ اصحيح ان القتال قد توقف ؟ اصحيح ان الامر قد انتهى ؟ اصحيح ان الاحلام كلها قد ضاعت ؟

ومرة اخرى ، وقع بصره على الصحيفة . لا ، ليسوا بكذابين ، وانما اولئك هم الكذابون . انهم في اهلي وعشيرتي وقومي ، معظمهم جبناء ، معظمهم خونة .

ثم اظلم كل شيء في عينيه ، وشعر بان جدران غرفته تضيق حوله وتضيق حتى تخنقه ، ثم تتسع وتتسع حتى يداخله خوف شديد من اتساعها . واحس بان رأسه ثقيل ثقيل يكاد جسسه كله يروح تحت عبثه . ولم يكن يفهم ما الذي يضطرب الآن في ذلك الرأس . كان يود لو ان باستطاعته ان يشقه ويقف على ما يفكر به . وبات لا يدري اهو فارغ ام مثقل ، وهل هو يعمل ام انه معطل .

ثم اعتراه في صدره ضيق شديد ، وشعر ان بوده ان يمزق ثوبه ، ويجرح جلده باظافره ، ويلطخ يديه بدمه . ثم ضاقت الجدران من جديد ، وامتلأت عيناه بالظلام .

وافاق على يد تهزّ كفته ، ونظر فاذا هو حمدي ، واقف فوق رأسه ، وفي عينيه الفلق والضيق ، وسأله إن كان يشكو شيئاً ، فلم يجب ، ورأى حمدي فجأة ينحني فوقه ويحاول ان يرفعه من كتفيه ، وحين استوى في سريره ، نظر الى حيث كان حمدي ينظر ، فرأى ان غطاء سريره كان ملطخاً بالدم .

وسرعان ما انفجر باكياً كالطفل .

وتلقاه حمدي بين ذراعيه ، وادرك هو ان صديقه العراقي كان يردّ على كلامه حين كان يقول :

– لا .. انك مخطيء .. اننا لم نخسر .. ان فلسطين لم تضع . سيستأنف العرب القتال ، وسيتمون النصر الى آخره . هديء روعك ايها الصديق . انك تبالغ في ياسك .

ثم شعر بيد صديقه تضمد جراح رأسه ، فشعر إذ ذاك فقط بألم في رأسه ، في كل جزء من رأسه ، كأنما سقطت عليه اثقال من حديد ، او كأنما دق هذا الرأس دقاً عنيفاً بجدران ضيقة ، وشعر بان دموعه ما انفكت تسيل على خديه ، بالرغم من انه كان يجهد في امساكها . وشعر بان دمعة تبلغ شفثيه ، فأحس لها بمذاق مرير لم يذهب به الا مذاق النبيذ الذي استحضره حمدي لتوّه ، وأنشأ يصب له ولنفسه منه الكؤوس .

المنظرة...

صلي لأجلي!
عبر أسوار
وطني الحزين ، الجائع ، العاري
وعلى رصيف المرفأ انتظري
- يا كوكبي الساري
وحديث شماري -
قلبي مياه البحر ، تحملهُ
تفاحة حمراء ... كنتذكار
وعبر آذار
ورفاق أسفاري
يتلمسون طريق عودتهم
ورسائي وأبي وأزهاري
وكلبنا الضاري
يعوي ، وعينا شيخ حارتنا
مصلوبتان ، على لظى النار
وشجيرة الليمون يسرقها
مها تعالت ، صبية الجار
وكقبرات الصبح ، هائمه
والموت والثار
ستظل أفكارني
تعلو وتعلو عبر أسوار
وطني الحزين ، الجائع ، العاري
وانا واطهاري
في غربة الدار
وحدي بلا حب وتذكار

[بغداد] عبد الوهاب البياتي

وقد شرب مع حمدي تلك الليلة كوؤوساً كثيرة ، فثملاً
وعربدا . ثم رأى حمدي يتقياً على بساط الغرفة ، فشعر بانه
لم يكن هو نفسه الا نقطة رشاش من هذا القياء الكثير .

★

وضعف اهتمامه بعد ذلك بسائر فصول الرواية ، فراح
يتابعها بنفسية لاعب خاسر ينظر الى اللاعبين يتسلون فيما بينهم .
وظل جامداً حين بلغته انباء استئناف القتال ، انباء مضي الزعماء
في تدجيلهم على شعوبهم ؛ وظل جامداً حين بلغته انباء الهدنة
الثانية ؛ وظل جامداً حين بلغته انباء هزيمة الجيوش العربية .
واي شيء كان جديراً بقتل جموده ، وهز ضميره الميت ؟
كان يشعر بالحجل اذ يمشي في شوارع باريس ، ويشعر بالحجل
اذا رأى عربياً من بعيد ، او التقى بعربي عن قريب ، ويشعر
بالحجل إذا رأى اجنبياً ، كأن كل اجنبي كان ذلك اليهودي
المنتصر . وزهد في كل شيء : في اللقمة والفرحة والحب ، وحتى
في الحرف الذي أضنى بسواده عينيه طوال اربع سنوات ..
ما نفع هذا الحرف في بلاد مات فيها كل شيء ؟ حبذا لو لم
يأت الى الغرب ، وظل في بلاده ، يسوق الحياة التي يسوقها
الناس جميعاً ، بل تلك التي يسوقها الزعماء .. ما كان يمنعه من
ان يصبح زعيماً بينهم ؟

ولكن الامر لم يكن بيده . فهو قد اتى ليفتح في حياته
افقاً جديداً . وها هو الآن قد انهى دراسته ، ونظر الى المستقبل
يستشرف افقه المرتجى ، فاذا المجرمون قد حطموا له مستقبله ،
مستقبل ملايين الشباب ، واطفأوا مصباح امله ، امل ملايين
الشباب .

ورجع الى وطنه بالطائرة دون ان ينيء احداً بمجيئه .
وحين نظر الى قومه حوله يروحون ويحيئون ، اشتد شعوره
بالحجل من نفسه .

وحين دخل الى غرفته في بيته ، في مسقط رأسه ، عزم
على ان يبدأ صراعه . وكانت المرحلة الاولى في هذا الصراع
ان يميت نفسه القديمة ، ان يقتلها بكل اجوائها ، بكل معتقداتها ،
بكل ما كانت يعيش فيها ، بكل من كان يعيش في كنفها .
وكان ينبغي له قبل كل شيء ان يقتل الثقة بزعمائه وحكامه ،
ليقتل نفسه القديمة .

ويوم يحقق ذلك فقط ، يستطيع ان يولد من جديد .

سهيل ادريس